Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
No.18, Issue: 2011

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور–باكستان.
العدد الثامن عشر، 2011م.

صورة المرأة في الشعر الأندلسي
في عصر الطوائف والمرابطين

رُحمى عمران
محاضرة في قسم اللغة العربية بجامعة بهاء الدين زكريا، ملتان

د.محمد أبوذر خليل
الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية بجامعة بهاء الدين زكريا، ملتان

ABSTRACT:

Poetry in Muslim Spain admittedly occupies a distinguished place, even the public in general was fond of poetry. The poetry of this age occupies all literary forms and types.

Feminism was the most popular topic in each scientical field and particularly the Lyrical eulogy, Praise and Bravery.

This article also deals with the place and status of a woman as depicted in the poetry during the period of "Feeble Kings" and "Murabtean". The study in this particular field is evidence to the facts that women in this period excelled the men in certain specific field of literature as poetry.

أوشك عصر "ملوك الطوائف" في الأندلس أن يكون آخر عهد المسلمين فيها، لولا أن بسط سلطان المغرب "يوسف بن تاشفين" سيطرته على الأندلس، فأطال عمر الوجود الإسلامي فيها مئة عام، بانتصاره الباهر على الفرنجة في معركة الزلاقة.

امتد عصر ملوك الطوائف اثنتين وستين سنة، من سقوط الدولة المروانية سنة 422هـ، إلى مجيئ ابن تاشفين إلى الأندلس سنة 484هـ. وامتد حكم المرابطين فيها خمساً و خمسين سنة، حيث انتهى على يد الموحدين سنة 539هـ.

أما ملوك الطوائف فكانوا زمن الخلافة المروانية، حكاماً مستقلين في بعض المدن، أو ولاة على بعضها، استبدوا بها عند سقوط الخلافة و أورثوا حكمها أبناءهم وأتباعهم.

وأما المرابطون فقد نشأت دولتهم في المغرب، وأصبح ابن تاشفين أول سلطان لها، ثم جاز العدوة لما استنجد به نفرمن ملوك الطوائف، لينصر بعضهم على بعض، فبسط سلطانه عليهم، واستولى على دويلاتهم، وقضى عليها في عشر سنين.

وتعد حقبتا ملوك الطوائف والمرابطين (422-539هـ) من أبرز حقب التاريخ الأندلسي، لشدة اتصالهما رغم تفاوتهما واختلافهما، ولما تميزتا به من صفات و خصائص في الحياة السياسة والاجتماعية والثقافية، متوافقة حيناً، ومتخالفة أحياناً و متغايرةً أحياناً أخرى.

ومَاج العصر بالحروب فكثرت الهجرة الداخلية والخارجية كثرة ظاهرة، فنتيجة الصراع بين ملوك الطوائف أنفسهم، والصراع بين العرب والبربر وما خلفه ذلك من آثار، جعل الناس ينتقلون من مدينة إلى أخرى بحثاً عن ملاذ أكثر أمناً. ونتيجة لاستعانة بعض الأمراء بالاسبان، أو استيلاء الإسبان على بعض المواقع والمدن، فر الناس إلى المغرب، مخلفين أوطانًا تعصف بها الأحداث وتمزقها الفتن. أما صورة العصر الزاهية المقابلة، فهي صورة الأزدهار الثقافي واختلافها. فقد ارتبط بهذا العصر أعلام مشهورة لمعت في آفاق العلوم والفنون، كأبي عمرو الداني (ت 444هـ) ومكى بن أبي طالب (ت 437هـ) بحتري الأندلس وشاعرها الأشهر.

وكانت المرأة في المجتمع المرابطي برزة وهي كانت كذلك من قبل لا تتلثم كما يتلثم الرجال، لذا لقب المرابطون بالملثمين فزاد تأثيرها في المجتمع، واتخذت لنفسها مكانة رفيعة، فقصدها الشعراء والأدباء و ذووالحاجة. تراجع الأدب والشعر في عصر المرابطين عما كان عليه في عصر الطوائف، لأسباب كثيرة أبرزها: أن دولة المرابطين كانت دولة بدوية، همها الأكبر تثبت أركان الدولة، وأنها دولة دينية لا تنظر بعين الرضا إلى الثقافة النظرية، وأن ولاتهم على الأندلس لم يكونوا ذوي علم بالعربية

ولما كان عصر المرابطين امتدادًا لعصر ملوك الطوائف، وكان كثير من العلماء والأدباء والشعراء من مخضرمي العصرين، استطعنا أن نعد فيهم كوكبة لامعة من الأعلام كالقاضي عياض (ت525هـ) في الحديث والفقه، و ابن باجة (ت 532هـ) في الفلسفة، وابن عبدون(ت 529هـ) في الكتابة و الترسل، والأعمى التطيلي (ت 525هـ) في الموشحات، وابن اللبانة (ت 507هـ) في الشعر، وأمير شعراء الأندلس و متنبئها ابن خفاجة (ت533هـ).

في هذا الخضم المائج من الأحداث والوقائع والتغيرات، نتسأل عن موقع المرأة منها، وموقفها إزاءها، وهل كانت فاعلة فيها، وإلى أي مدى أثرت في مسارها؟

المرأة معنى كبير أعدته العناية الإلهية لوظيفة سامية للغاية، وهي حفظ النوع البشري واستدامته[1]. وهي مخلوق شفاف المشاعر، رقيق العواطف، تمثيل قيمة حقيقية في بنية المجتمع، وتترك بشخصيتها ومبادئها، وأهدافها آثاراً واضحة لدى الآخر، وكثيراً ما تمتد هذه الآثار إلى مستقبله. وقد تبوأت المرأة الأندلسية مكاناً سامياً في حياة الرجل لاينسى، حفظته ذاكرة الأيام، ووعته سجلات الزمن. لذا وجدت من الرجال إعزازًا وتكريماً حتى غداً تقديرها واحترامها موضع تقدير المؤرخين وإعجابهم فقد خلّد الأندلسيون المرأة إذ رأوا أن تأثيرها على الرجل ليس مقصوراً على مدة محددة من حياته بل إن هذا الأثر يبدأ من ولادته، ويستمر حتى وفاته. فهى التى تملأ عليه حياته بأمومتها عندما يكون طفلاً لا يعرف من حوله غيرها. ثم تملك عليه قبله و وجدانه عندما يميل إليها. فالقيمة الإنسانية للمرأة لدى الشعراء الأندلسيين تبدأ من المرأة الأم حيث يصور لنا المعتمد بن عباد شعراً. صورة المرأة الأم الثكلى التي فقدت ابنيها المأمون والراضي، بعد خلع زوجها المعتمد من الحكم، فيصورها حانية يتمزق فؤادها ألماً وحسرةً، وتنهمر دموعها كالغيث، و تتصبر بالتقوى، واحتساب الأجر. يقول:

معي الأخواتُ الهالكاتُ عليكما وأثكُمَا الثكلى المضَرَّمةُ الصَّدرِ
تبكى بدمعٍ ليس للغيث مثلُهُ وتزجُرُها التقوىفَتُصغِي إلى الزَّجْرِ
تُذللُهَا الذكرى فتفزَع للبكا وتُصبرفيالأحيان شُحَا عَلَى الأَجْر.[2]

وَلَعل رِثاء المرأة أصدق تعبير عن القيمة الإنسانية لها، لَكِنَّ ننظُر في الشعر الأندلسي، أن رِثاء المرأة فيه يحتل مساحة شاسعة، فقد بكى الشعراء الأندلسيون زوجاتهم، وذرفوا عليهن الدموع، وارتفعت أصواتهم وراءهن، مضمخة بالآهات الحزينة، والزفرات الحارة. ولعل رثاء المرأة من أشد أنواع الرثاء صعوبة، هذا ما أشار إليه ابن رشيق بقوله:

"ومن أشد أنواع الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلاً أو امرأة، لضيق الكلام عليه فيهما، وقلة الصفات".[3]

كان الشعراء الأندلسيون نظموا شعراً في رثائها والبكاء على فراقها، فكان شعرهم مفعماً بالصدق والعاطفة الجياشة. وخير من يمثل رثاء الزوجة ثلاثة شعراء أولهم أبو اسحق الإلبيري[4] بقصيدته الرائية التي يعبر فيها عن لوعته وحزنه لفراق زوجته ويصفها بالتقى، وطهارة العرض وأصالة العرق، وكرم المعشر يقول:

عُج بالمطي على اليباب الغَامِرِ واربَع على قَبرٍتصمَّن نَاظِرِي
فَلَكم تَضَمّنَ مَنْ تقىً وتعففٍ وكَرِيمِ أعراقٍ وعِرضٍ طَاهِرِ
واقرَء السَّلام عليه من ذِي لوعةٍ صدعَته صدعًا ماله من جَابرِ
إن كان يدثِرُ جسمَه في رَمْسه فهوايَ فيه الدهرَ ليس بدَاثر
قَطَع الزَّمانَ مَعِي بأكْرَم عِشرَة لَهَفي عليهِ من أبرّ مُعاشِر[5]

ومن الشعراء الذين رَثوا زوجاتهم أو معشوقاتهم، ابن حمديس،[6] الأعمى التطيلي،[7] ابن الزقاق البلنسي،[8] أبوبكر عبدالعزيز بن سعيدين القبطرنة، أبو عامر

[9] و ابن الحداد.[10] وماذا ننتظر من شاعر فقد أمه، أو زوجته، أو أخته، أو ابنته غير أن يصرخ و ينتحب، ويُصاب بالذهول، وينظم شعراً حزيناً موجعاً.

وتتجلى أهمية المرأة "كزوجَة" في أبهى صورها، وتشكل نصيب الأسد في الصورة الكلية للمرأة الأندلسية. إذ كانت العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة تلاحم ووئام، يصور ذلك ابن عباد في حديثه عن زوجته "اعتماد" يقول:

فماحلّ خِلٌّ من فؤاد خليله　　محلّ اعتماد من فؤاد محمد[11]

ولعل لحظات الوداع، وما تحمله في ثناياها من صور المودة والهوى بين الزوجين، وحرص الزوجة على تذكير زوجها بضرورة التمسك برباط المحبة، والحفاظ على عهود الزوجية بينهما، كل ذلك يُؤكد أهمية و قيمة المرأة في الشعر ما صوره ابن دراج القسطلي[12] في هذه الأبيات:

ولما تدانت للوداع وقـــدهفا　　صبـــري منها أَنَّةٌ وزفيـــرُ
تُناشِدُني عَهَد المودَّة والهَوى　　وفي المهدِ مَبْغوم النِّداءِ صغيرُ
عَصَيْتُ شَفِيْعَ النفسِ فيه وقادني　　رواحٌ لِتدآبِ السُّرى وبِكوّرُ[13]

بعد الرثاء هناك اتجاه آخر في الشعر هو "الغزل" يعدُّ الغزل من أكثر فنون الشعر الأندلسي، الذي شغف به الشعراء الأندلسيون ووجدوا فيه مجالاً للإبداع. غزل شعراء عصر الطوائف لا يختلف في كثير من مناحيه عن تغزل شعراء عصر المرابطين، لأن قيام الدولة المرابطية بالأندلس لم يكن لها تأثير في مسار هذا الموضوع الشعري، يضاف إلى ذلك أن معظم شعراء العصر السابق أدركوا عصر المرابطين. فكان فن العزل في عصر المرابطين امتدادًا طبيعياً لعصر الطوائف بامتداد حياة هؤلاء كابن سارة الشنتريني، والأعمى التطيلي، وابن خفاجة، و ابن حمديس .. وغيرهم. والغزل من أكثر الأغراض الشعرية شيوعًا لاتصاله الوثيق بالطبيعة الإنسانية. فالإنسان يحتاج دائماً لتغذية حاجاته الفطرية التى تتفق مع مجتمعة، ويتجه بكل قدراته لتحقيق رغباته من خلال ما يسمى الحب.[14] والحب يرتكز على قاعدة أساسية تتمثل في ميل كلا الجنسين "الذكر والانثى" لبعضهما. أى أن كل جنسٍ بحاجة للاكتمال بالجنس الآخر

(عالمها العلوي). [15]

للغزل فرعان: الأول: الغزل المادي الحسي.

الثاني: الغزل المعنوى العفيف

الاتجاه الأول: قد أشارت الدراسات الأدبية[16] إلى أن هذا الاتجاه من الشعر دخيل على العرب وليس من طباعهم، هذا ما أشار إليه الدكتور أحمد الحوفي بقوله "إن الغزل الفاحش نبت أجنبي نقل من الحبشة إلى اليمن فساعدت حضارة اليمن على نمائه وتعهده بعض الشعراء المتأثرين باليمن والأحباش، فغلظت سوقه، وبسقت فروعه، وكانت ثمراته هذه القصائد العابثة التي أبدع صوغها امرؤ القيس والأعشى، وسحيم من قبل ثم عمر بن أبي ربيعة من بعد". [17]

وهو الذي يميل فيه الشاعر إلى التعقل بمفاتن المحبوب الجسدية أو التعبير عن العواطف تعبيراً ينطوي على رغبة صريحة. لذا فقد ظل الرجل خاضعاً لسلطان حب المرأة راغباً في وصالها، فهي جنة الرجل كما يصف ابن حمديس بقوله:

وطيبة الأنفاس تحسب وَصْلَها   ومن واصلته جَنَّةَ المتنعم[18]

وهي ماء الحياة وسرها كما عبر عن ذلك ابن العطار بقوله:

رقت محاسنها وراق نعيمها   فكأنما ماء الحياة أديمها[19]

وقد تأثر الشعراء الأندلسيون من جمال المرأة ورقتها ما جعلهم ينظمون شعراً يُنافس المشارقة، فانعكست صورتها في أشعارهم، ووصفوها صفات مادية و معنوية.

يقول ابن زيدون في محبوبته "ولادة":

لحى الله يومًا لَسْتُ فيه بملتقٍ   محياكِ من أهل النَّوى والتفرُّق

وكيفَ يطيبُ العيش دون مَسرَّةٍ   وأَيُّ سُرورٍ للكئيبِ المؤرِّقِ[20]

:

يامَنْ غَدَوْتُ به في الناس مشتهراً   قلبي عليكِ يقاسي الهمّ والفكرا
إن غبت لم ألق إنسانًا يؤنِّسنِي   وإن حضرت فكل الناس قد حَضَرا[21]

وحُبُّ "نغم" محبوبة ابن حزم أطارت قلبه عن مستقره. يقول:

مهذبة بيضاء كالشمس إنْ بَدَتْ   وسائر ربَّاتِ الحجالِ نُجومُ
أطار هواها القلب عن مستقره   فبعد وقوع ظل وهو يحومُ[22]

لقد كرر الشعراء الوصف في غزلياتهم فقالوا: إن الخدود مشرقة كالصباح، والقدود أو القامات كغصن الأراك، وجواهر العقود على الترائب كالنجوم، والحدق تسبي الضراغم والأسود، وكأنما الأعين أسنة وظبات سيوف. وكأنما الضفائر ليال حالكة السواد، فإذا هذه الصورة الجميلة تأخذ نسقاً أندلسياً جديداً تُنعش الفكر بعُبقه.[23]

ومن الصور التراثية في استلهام المرأة لدى الشعراء الاندلسيين:

أن يقفوا على الأطلال ويبكو الديار، جرياً على عادة الشعراء التي صارت تقليداً متبعاً من العصر الجاهلي عصور متأخرة.

وقد تفاوتت الآراء في هذا التقليد وتباينت، فهناك من يرى أن الطلل رَمْز لليأس وذكر المرأة فيه إنما هو بارقة أمل يتثبت الشاعر بها. فالمرأة رمز للأمل.[24] في حين يرى بعضهم أن الطلل رمز الفناء والموت الذى كان هاجس الإنسان الأول ولا يزال، وإن الطلل تجسيد عياني لقدرة الموت التي لا تظهر. والمرأة التى يرد ذكرها في المقدمات الطللية مصدر لخصوبة الحياة و استمرارها[25]، غير أنا لانُنكرُ أن الوقوف على الطلل هو نوع من التفكير في مشكلات أساسية يحاور فيها الشاعر نفسه في معني الحياة، وأن ذكر المرأة فيه نوع من الهرب لا ضرب من اللهو.[26]

ومن الشعراء الأندلسيين الذين وقفوا على الديار، وساءلوا الأطلال، الشاعر أبو عبدالله محمد بن سليمان الخياط الأعمى،[27] فقد وقف يُحيِّ دار علوة التي أثارت

"يادار عُلوةَ قد هيَّجت لي شَجَنًا وزدتني حزقًا حُيِّيتِ من دارِ
كم بِتُّ فيك على اللَّذاتِ مُعتكفًا والليل مُدّرِعُ ثوبًا من القارِ[28]"

ومن الإلهام أن يغدو رسم المرأة و صورتها مصدر فتنة وإلهام للشعراء، فقد ذكر ابن بسام: أن أحد حمامات قرطبة رسمت فيه لوحة لامرأة على قطعة من المرمر، فافتتن العوام بها و تعشقوها، ونظموا فيها غزلاً، فقال أبو تمام الحجام:

"ودِمنة مرمرٍ تزهى بجيد تَنَاهى في التورُد و البياضِ
لها ولد ولم تعرف حليلاً ولا ألمت بأوجاع المخَاضِ
ونعلم أنها حَجَرٌ ولكن تُتَيّمُنَا بألحاظٍ مَراضِ[29]"

ومن الإلهام أن تكون نظرات عين الحبيبة مصدراً لإلهام الشاعر المحب هذا ما قاله ابن زيدون في ولاده:

"فهمت معنى الهوى من وحي طرفك لي إن الحوار لمفهوم من الحورِ"[30]

الشاعر الأندلسي يصف زيارة محبوبته له وما جرى بينهما من أحاديث العشق، وأحداث اللقاء. والمرأة الحرة أشد حرصًا من الرجل على هذا الأمر، إذ ليس معهودًا لدى العرب أن تصبح المرأة طالبة لا مطلوبة تتغزل بالرجال وتزور معشوقها.

الشاعر الأندلسي يصف محبوبته "وصفاً حِسياًّ" لا تحفظ فيه ولا احتشام حتى بلغ بعضهم إلى حد التهتك والمجون، وانزلقوا إلى درجة كبيرة من العبث واللهو. امتزج ابن زيدون حب ولادة في دمه، وحل سويداء قلبه، وملكت عليه كمل حواسه، فضلاً عن تفكيره، يقول:

"زارني بعد هَجعة والثُّريَّا رَاحةُ تقدِرُ الظلام بِشِبْرِ
فَرَشَفْتُ الرُّضَابَ أَعْذَبَ رَشْفٍ وَهَصَرْتُ القضَيبَ ألطَفَ هَصْرِ
ونَعْمِنَا بِلَفِّ جِسْمٍ بِجِسْمٍ لِلتِّصَافي – وقَرْعِ ثغرٍ بِثغرِ[31]"

ومن الشعراء الذين ذكروا أوصاف اللقاء والوصل بينهم وبين محبوباتهم إلى درجة تخدش الحياء، أبو القاسم المنيشي ابن شهيد ، أبونواس، ابن الزقاق البلنسي، أبو الفضل بن شرف القيرواني، ابن خفاجة وغيره.

الاتجاه الثاني: الغزل المعنوي العفيف:

وهو أصيل قديم أصالة العرب وقدمهم، وهو في الأندلس مستمد من الغزل العذري[32]، في نجد والحجاز، إلا أنه لا يسمى غزلاً عذرياً، فالغزل العذري كما حدده الدارسون أوسع وأشمل من الغزل العفيف[33]، فالعفة عنصر من عناصره. ومن خصائصه: تعلق الشاعر بامرأة واحدة يقصر غزله عليها. والثانية أن الغزل العذري لا نجد فيه وصفًا حسيا للمرأة في موضع، وفي موضع آخر وصفًا معنويًا، فكثيرًا من الشعراء الأندلسيين ممن نظموا في الغزل العفيف قالوا أيضاً غزلاً حسياً، كما أنهم لم يكونوا يقصرون القصيدة كلها على الغزل، بل كان غزلهم غالباً في مقدمات قصائدهم التقليدية، بمعنى أن بعض شعراء الطوائف والمرابطين قد أخذوا يتحدثون عن العفاف في شعرهم كمذهب أدبي، دون أن يعبر ذلك عن حقيقة أخلاقية ماثلة في نفوسهم .[33] يقول الشاعر أبو جعفر أحمد بن الأبار.[34]

"هَصَرَتْ يدى منه بغصن ناعمٍ لم أجنِ غير الحِلِّ من ثمراته
وأطعتُ سلطانَ العفافِ تكرمًا والمرءُ مجبولُ على عاداته"[35]

ويعد ابن حزم أول من قام بتقنين الحب العفيف في الأندلس، من خلال رسالته "طوق الحمامة"[36] هذا ما أشار إليه غارسيا غوس[37]. ويقول الراهب الإسباني "آسين بلاثيوس" (1841 – 1945م):

"يمكن اعتبار ابن حزم نموذجاً للحب الروحي العفيف الذي يسميه علماء النفس، الحب الأفلاطوني أو الرومانتيكي".[38]

فمظاهر العفة في شعر ابن حزم كثيرة جدًا، أسوق بعضًا منها:

تصويره لعفة النفس وقناعتها، واكتفائها بالنظرة إلى المحبوبة، ورضائها بالعذاب والمعاناة. يقول:

"فإن تنأ عَنِّي بالوصال فإنّني سأرضى بلحظ العَينِ إن لم يَكُنْ وَصلُ"(39)

ويرى أن وصل الروح ألطف ألف مرة من وصل الجسد، وهذه قمة العفة، فقد ألبسها ثوبًا ملائكياً يقول:

ووصلُ الروح ألطف فيكَ وَقَعاً مِن الجِسم المَوَاصِل ألف ضعفِ(39)

ومن شعراء "الطوائف" الذين سلكوا مذهب العفة في شعرهم الشاعر الكفيف الحصري: (40)

حيث يحكي قصة ليلة قضاها مع محبوبته التى ألقت بنفسها بين يديه مستسلمة فكاد أن يهم بها لولا أن أدبه زجره فاستعاذ بالله من شيطانه، وعف عن الوقوع في الفاحشة عفة المقتدر يقول:

قالت وهبتك مُهجتي فَخُذ ودَع الفراشَ ونَم على فَخذي
وثنت إلى مثل الكثيبِ يدي فأجَبْتُهَا نعمَ الأرِيكَة ذِي
وَهَمَمت لمن قال لي أدبي بالله من شيطانها استعذ
قَالت عَفَنْتَ فعفتَ قَلتُ لها مُذ شِبتُ باللذات لَم أُلذِ(41)

ومن شعراء المرابطين الذين اتخذوا من العفة مذهبا شعريًا لهم؛ لا تعففاً طبعيًا من أخلاقهم، الشاعر ابن خفاجة، حيث يؤكد على التزامه العفة. ويقصد بالعفة عدم ارتكاب الفاحشة يقول:

فلم يك إلا رشفةٌ واعتناقَةٌ ويُعجبني أني أَعُفُّ إزارا(42)

وليس بجديد على الشعراء أن يتفجعوا للحظات البين ودنو ساعة الفراق. فمنذ الجاهلية والشعراء يبكون، وينتجون، وتتأجج قلوبهم بنيران الأسى من فرط الوجد والصبابة، في اللحظة التي يقفون فيها لتوديع محبوباتهم. واقتفى الأديب والشاعر الأندلسي آثار آبائه وأجداده في ذلك هذا ما أشار إليه ابن حزم بقوله:

".. من البنين الوداع، أعنى رحيل المحب، أورحيل المحبوب، وإنه لمن المناظر الهائلة والمواقف الصعبة، التي تفتضح فيها عزيمة كل ماضي العزائم، وتذهب قوة كل ذي بصيرة، ويظهر مكنون الجوى .. ولعمري لو أن ظريفا يموت في ساعة الوداع

ً

(43)

وكما أن ابن حزم أطر للشعر العفيف، ووضع له بعض الأصول، فقد تبعه بعض الشعراء المتصوفين الذين كانوا يجدون في هذا اللون الشعري عوضا، عن الحب الإلهي، كأبي الحسن الشنتري، ومحي الدين بن عربي وغيرهما.

لم يكن للمرأة حضور في المدح إذا ما قيس بما سبقه من شعر الغزل ، فلدى استعراض الشعراء الذين نظموا شعراً في مديح المرأة في عصر المرابطين، وذلك لما كانت تتمتع به المرأة المرابطية من نفوذ واسع ومكانة مرموقة، وسلطة كبيرة لم تعهدها عصور الحكم الإسلامي في الاندلس طوال ثمانية قرون. فالقصيدة الأولى للأعمى التطيلي، قالها في مدح الحرة حواء زوجة سير بن أبي بكر التي مطلعها:

يا رَبع ناجيه انهَلْت بكِ السُّحُبْ   أما ترى كيف نَابت دونَكِ النُّوبَ (44)

وقد طرق الشاعر في الممدوحة أول صفة وأهمها، وهي فضيلة الكرم، لأنها من أكبر الفضائل، بوصفها مظهراً من مظاهر القوة والسيادة، وهي مبتغى الشاعر وقصده. ثم يذكر مناقبها ويصفها بالتدين والكرم والسخاء، والعطاء ، والقدر العالي الذي يفوق قدر الملوك. ويذكر ما حازت عليه من السيادة والشرف، وطيب النسب، والإحسان إلى الرعية إلى درجة أن فضلها وبرها قدعَمَّ أهل الأرض كلهم.

يقول:

دُنيا ولا تَرفٌ، دين ولا قَشَفٌ   ملك ولا سَرفٌ دركٌ ولا طلبُ
برٌّ ولا سَقَمٌ عيشٌ ولا هَرَمٌ   جدٌّ ولا نصبٌ وردٌ ولا قربُ
مَلَيكةٌ لا يُوازي قدرها ملكٌ   كالشَمس تصغُرُ عن مقدارِها الشُّهُبُ
ولاكَ أبهج فخرٍ تفخرين به   إذ انتدى للفخار السادَةُ النَّجَبُ
قدعم بِرِّكِ أهل الأرض قاطبةً   فكيفَ أُخرجَ عنه جَارَك الجُنُبُ (45)

والقصيدة الثانية لابن خفاجة في مديح "مريم بنت ابراهم" زوجة الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين التي مطلعها:

يَمَّمْتُ من علياك خيرَمُيَمَّم وحلَلْتُ من مَغَناكَ دَارَ مُخَيَّمِ(46)

وفي هذه القصيدة يتحلل الشاعر من قيود القصيدة التقليدية، فينقضُ على موضوعه في المديح دون ذكر للأطلال أو النسيب، أخذاً برأي ابن الأثير الذي يفسح المجال أمام الشعراء ويبيح لهم أن يحطموا الحواجز والقيود التي تحد من شاعريتهم وخيالهم فطالب الشاعر إذا نظم قصيداً أن ينظر، فإن كان مديحاً صرفاً لا يختص بحادثة من الحوادث فهو مخير بين أن يفتتحها أو لايفتتحها بغزل، بل يرتجل المديح ارتجالاً من أولها.(47) ثم يأخذ في مدحها و سرد صفاتها الحميدة، كالأمانة والديانة، والتقى، والخلق الأشرف والطريق الأقوم، وهي جليلة القدر، جزلة البيان، راجحة العقل، زكية النسب، ربيبة مجد، عُرف أهلها برفعة قدرهم، وهم فرسان غنى، وأعلام ندى.

يقول:

وكَفى احتماءَ مكانةٍ وصيانةٍ أنّي عَلقتُ بذمةٍ من مَرْيم

ذاتِ الأمانةِ والديانةِ والتُّقى والخلق الأشرف و الطريق الأقْوَم

ذاتِ الجلالة والجزالة والنهي والبيت الأرفع والنصابِ الأكرم

من بيتِ عِزُّحيت لا تَلْقى بغَيْـ ـرِ مُسَوَّدٍ و مُعَظَّم

مشهورةٌ في الفضل قدماً والنُّهى والنبل شُهْرَةَ غُرَّةٍ فِي أَدهَمِ

جاءت بها الغُرُّ الكرامُ كَرِيمةً لا تَشرئبُّ إلى بياضِ الدِّرْهَمِ

جَوْدٌ تَنُوءُبه الرِّكابُ على السُّرى من منجدٍ أرج الرِّياح ومُتْهِم

مَلَكَتْ بِه الأحرارَ أَكْرَمُ حُرَّةٍ بَسَطَ المِقِلُّ لَهَا يمينَ المعْدَمِ

حملَ الثنَاءَ بها القريضَ وإنَّمَا حَمَل الحديثَ رِوَايةً عَنْ مسلمٍ(48)

ونلاحظ أن الشاعر قد حافظ على جزالة ألفاظه وقوة عباراته، وجاء أسلوبه في المديح متكلفاً مصنوعًا، والعاطفة غير صادقة. ولعل أبرز ملمح في هذه الأبيات: التطور والتجديد في نمط قصيدة المديح التي تأثرت بالبيئة الأندلسية الجديدة التي يُغيِّبُ فيها الشاعر ذكر الأطلال والديار، والنسيب، ويلجأ إلى الدخول إلى موضوع المديح

(49)

وبعد "المدح" نبحث "الهجاء" وفيه "صورة المرأة" الهجاء فن من فنون الشعر، يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء(50) و هو باب قديم من أبواب الشعر العربي، وقد أشار النقاد القدماء إلى رسوخ هذا الفن و ثباته في الشعر. فذهب ابن سلام إلى أن الشعر يتدرج في أربعة موضوعات عد الهجاء واحداً منها وهي: الفخر والمديح، والنسيب والهجاء(51) و رأى بعض النقاد أن الهجاء هو نقيض المدح على نحوما نجد عند قدامة بن جعفر(52). وكما وُجِدَ الهجاء في الشعر المشرقي، وُجِدَ كذلك في الشعر الأندلسي، وشاع هذا الصنف من الشعر على ألسنة طبقة من الشعراء الذين احترفوا الهجاء، وجعلوه وَسيلة للكسب والارتزاق، وقد وجد هؤلاء الشعراء رواجاً لبضاعتهم في المجتمع الأندلسي فقد ذكر المقري أن أهل الأندلس" كان لهم الترف والنعيم والمجون، ومداراة الشعراء خوف الهجاء محلٌ وثيرُ المِهاد".(53)

ينظمون في هجاء زوجاتهم و معشوقاتهم، وفي هجاء المرأة عموماً والانتقاص من شأنها. ومما قيل في هجاء المرأة الأندلسية ، ما قاله ابن زيدون في هجاء محبوبته ولادة التي استطاع حساده، ومن يناكفه في حبه إياها أن ينغض عليه صفوة أنسه و عشقه، وينافسه في حبها؛ إلى أن استطاعوا أن يوقعوا بين عشيقين سطرا قصة حب على أرض الأندلس ظلت خالده مع الأيام، حتى انقلب هذا الحب إلى شحناء وتباغض بينهما انتهى بالقطيعة والجفاء، والتهاجي بينهما، إلى حد الشتم والسباب، فَعَرَضَتْ ولادة برجولته، وخلعت فيه حياءها، ولم تتورع من رميه بالمقذعات مماجعل ابن زيدون يقابل الكيد بالكيد، فعرض بها وحاول أن يرميها في عفتها. فمن شعره في هجائها يصفها بأنها نهاية الطعام، وفضلاته يقول:

"عَيْر تَمونَا بأنْ قدصَار يخلُفنا فيمَن لحُبِ وما في ذاك من عَار
أكلٌ شهِيٌّ أصَبْنَا مِنْ أطايِبِه بَعضًا و بعضًا صَفَحْنَا عنْهُ للغَارِ"(54)

ويقول فيها أيضاً:

"لَيسَ منكَ الهوَى ولاأنتَ فِيه   اهبطي مصر أنْتِ من قوم مُوسِى"[55]

يرمز ابن زيدون في قوله "أنت من قوم موسى" إلى ما حكاه القرآن الكريم عن بنى إسرائيل "وإذا قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد".[56] وفي هذا تعريض و إشارة إلى أن ولادة لا يكفيها خليل واحد بل تريد أكثر.

ومن الشعراء الذين هجوا زوجاتهم ابن سارة الشنتريني، فقد هجا زوجته بعد أن طلقها فيثني على الزمان الذي أسدى إليه هذا الصنيع، ويرميها بالنفاق والخبث، ويشبهها بالذئبة، كما يشبهها بالحية الرقطاء يقول:

أما الزمان فرق لي من طَلة   كَانت قُطل ذي بسَيف نِفِاقِها

الذئبَةَ الطُّلْساءُ عند نعاقِها   والحيّةُ الرَّقطاء عند عِناقِها[57]

وأما ابن خفاجة فهو يهجو –كما يزعم – ذلك الصنف من النساء اللائي يتسترن بالزينة والخلي لإخفاء أخلاقهن وطباعهن الرديئة الشاذة يقول:

ألا بكى الدُّرُّ فوقَ جالية   حَلّى بها العقدُ شِرَّما حلَّى

يرى بها ما يمرُّ من حَلقٍ   مَخبَّأ تحت منظَرِ الجُلى

قد راق مرأى وسَاء مختبراً   فهل تُرى أَثمَرَت بِهادِ فلى[58]

وقد هجا ابن عمار الشاعر اعتماد الرميكية زوجة المعتمد بن عباد بأبياتٍ كانت سبباً في مقتله.

وقد كانت مهاجاة بين هجَّاء الأندلس، أبي بكر الأعمى المخزومي ونزهون بنت القلاعي الشاعرة. فمن ذلك قوله فيها:

"على وجه نزهونٍ من الحسن مَسْحَةٌ   وإن كان قد أمسىَ من الضوء عاريا

قواصِدُ نزهونٍ تَوارِك غيرِها   ومَن قَصَدَ الْبَحْرَ استقلَّ السَّواقِيا[59]

تجدر الإشارة إلى أنَّ هنالك هجاءً مُقْذِعًا، مليئاً بألفاظ العورات، و فُحش الكلام، دار على لسانيهما. أرى أنه حين ينزل الهجاء إلى هذا الدرك أو هذا المنحدر،

ومن إلهام المرأة للشاعر الأندلسي أن يذكرها في اغترابه، فيصف حاله وهو يجاهد النفس بالصبر على النأي، والبعد، جهادًا مديراً ، يصور ابن دراج القسطلي لوعته و معاناته بالبعد عن محبوبته يقول:

أُجاهِدُ الصَّبْرَ عنها وَهيَ غافِلةٌ   عن لَوْعةٍ في الحَشا منهاتُناجيني(60)

وأما ابن الزقاق البلنسي فقد أنطقت الغربة فيه كل عواطفه، واستثارت مشاعره، فأخذ يرسل إلى محبوبته (سُعْدى) تحية مُضمَخَّةً بعبير الشوق، و قد غلفها بأنات الجوى، ودموع النأي، وذوب حشاه، وخفق فؤاده، جاعلاً من رِيَاهم أجود الطيب وأعبقه، ومن حديثهم أجود العسل وأحسنه.

يقول:

أيُّها الراكِبُ المِجِبُّ لِتُبلِغْ   ركبُ سُعدى تحيةً من مَشوقِ
ذي جوىً ناضبٍ ومعِ خصيبٍ   وحشاً ذائب وقلبِ خفوقِ
مَرَجَ الدُّر طَزَفُهُ بعقيقٍ   مذ أنا خوار كابَهُم بالعقيق
حَسْبُ مستنشقٍ من الطيب رَيَّا   هم وحسبي حديثهم من رحيقٍ(61)

ومن الإلهام أن يستحضر الشاعر طيف زوجته بخاصة، إذ حيل بينهما، فهذا الرمادي الشاعر يستحضر طيف زوجته عندما أودع السجن. فإذا ما ألمت بالرجل ضائقة، أو مصيبة، أو ما يتذكر زوجته شريكة حياته، فبسبب بعده عنها ذرفت عينه كل دموعها. ونار الوجد ألهب قلبه. وكذلك زوجته فقد خدّر الدمع خدها، وغاص الأسى في عينيها، و يصور لنا الرمادي حالة الأسى والألم التي ألمت به وبزوجه، من خلال خوار يجريه بينه وبينها، وهي تسأله أملَ الاجتماع بعد التفرق، فيجيبها لست أدري، ثم يطلب منها أن تكف عن البكاء رفقاً بنفسها. يقول:

أعَيني إن كانت لدمعيَ فَضْلَةً   تثبّت صَبري سَاعةً فتد فَّقي
فلو ساعدت قالت أمِن قلَّةِ الأسى   تَنقت دموعي أَم من البحر تستَقي

وقالت تظُنُّ الدهرَ يجمعُ بيننا فقلتُ لها من لي بظنَّ محقّق
ولكنني فيما زجرتُ بمُقْلةٍ زجرتُ اجتماعَ الشَّمْلِ بعد التفَرُّقِ
فقد كانت الأشفارُ في مثل بُعدنا فلما التَقَتْ بالطَّيْفِ قَالَتْ سنلتَقي
أباكيةَ يَوْمًا ولم يأتِ وقتُهُ سينفُدُ قبلَ اليَومِ دَمْعُكِ فَارِفِقِي(62)

وعندما أودع ابن زيدون السجن، نظم أبياتًا يدعو فيها أمه أنه ترفق بنفسها، وتكف عن البكاء بسبب سجنه، لأنها ليست أول من تُثكل بسجن ولدها، فلها في أم موسى (عليه السلام) عبرةُ عندما رمت به في اليمّ يقول:

أقِلِّي بكاءً لَست أولَ حُرةٍ طُوتْ بالأسَى كُشْحًا عَلى مضَض الثُّكل
وفي "أم مُوسى" عِبْرَةٌ إذ رَمَتْ بِه إلى اليمِّ في التَّابُوتِ فاعْتَبِري واسلِي(63)

فقد حَاوَلْنَا أنْ نَتَبَيَّنَ صورة المرأة في الشعر الاندلسي، في عصر الطوائف والمرابطين، وقدكشفت هذه الدراسة، أن هذه المرحلة "عصر الطوائف والمرابطين" لم تكن مرحلة ظلام؛ أو فقر أدبي، فقد رأينا نماذج شعرية عالية عند الشواعر والشعراء، وشاعرات وأديبات استطعن أن يفرضن وجودهن في المجتمع، وأن يشاركن في المجالس الأدبية، وأن ينشئن لهن صالونات أدبية، وأظهر المقال جرأة المرأة في الإفصاح عن نفسها وعن رغباتها، ومشاعرها تجاه الرجل بصراحة لا مثيل لها في الأرض كأمٍّ، وأخت، وابنة، وزوجة، ومحبوبة. وقد صورها الرجل إنسانةً لا يستطيع أنيحيا بدونها، فلذا كانت محور حديثه وإلهامه.

الهوامش

1- دائرة المعارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، م8/مادة (مرأ – امراة) ص595، ط3، دار المعارف، القاهرة.

2- الحلة السيراء ج 61/2.

3- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج818/2.

4- "هو أبو اسحق إبراهيم بن مسعود بن سعيد النجيبي الغرناطي الإلبيري توفي سنة 460هـ" ترتيب المدارك و تقريب المسالك، القاضى عياض.

5- ديوان أبي اسحق الإلبيري، د. محمد رضوان الدايه، دار الفكر المعاصر صوريا ص 90-93، ط 1،1991م.

6- "عبدالجبار بن حمديس الصِّقِلي (1054 – 1133م): ولد في سرقوسة وتوفي في جزيرة ميورقة. شاعر لجأ إلى الأندلس لما احتل النورمان جزيرة صقلية فلحق بالمعتمد بن عبّاد. شعره رقيق العاطفة، دقيق الوصف، طريف التشابيه. له "ديوان". "المنجد في الأعلام، ص 259، ط 12، 1982م.

7- "أبو العباس أحمد بن عبدالله بن أبي هريرة القيس الأعمى التُّطَيْلي، كان شاعراً أعمى من تطيلة بالأندلس، وهو صاحب القصيدة المشهورة ، التي أولها:

a. "لعلى أرى باق على الحدثان ألاحد ثاني عن فلٍّ و فلان"

b. "ويكسدية الموسوعة الحرةً".آخر تعديل لهذه الصحفة في 9.00:36أغسطس 2000م.

8- "ابن الزقاق أبو الحسن على البلنسي" (ت 1134م): شاعر بلنسي، هو ابن أخت ابن خفاجة الشاعر الأندلسي المشهور، كان ينحو منحى خاله في الغزل و وصف الطبيعة. و له أشعار في وصف مدينة بلنسية. توفي دون الأربعين".

a. "المنجد في الأعلام، ص: 338".

9- "أبو عامر محمد بن الحمارة الغرناطي. شاعر أديب مجيد هجاء وهو من شعراء المرابطين". النفخ الطيب. ج205/1.

10- "أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان القيسى المعروف ابن الحدّاد، (480هـ، 1087م) شاعر أندلسي، له ديوان "شعر كبير مرتب على حروف المعجم، أصله من وادى آش سكن المرية.

11- ديوان معتمد بن عباد، ص10.

12- "هو أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن دراج وكنيته أبو عمر ينتمي إلى قبيلة صنهاجة البربرية. ولد سنة 347هـ. وتوفي سنة 461هـ".وفيات الأعيان ج116/1.

13- ديوان ابن دراج القسطلي، د. محمود علي مكي، ص250، المكتب الإسلامي ط2، 1389هـ.

14- القصيدة العربية الاندلسية الغزلية، بسمة الدجاني، ص36، دار المستقبل العربي القاهرة، 1997م.

15- مقدمة رسائل ابن حزم، ص 23-35.

16- الغزل في العصر الجاهلي، الدكتور أحمد الحوفي، ص244-268.

17- المصدر السابق.

18- ديوان ابن حمديس، ص 407.

19- قلائد العقيان و محاسن الأعيان، الفتح ابن خاقان، ص 887، مكتبة المنار، الزرقاء، ط1، 1989م.

20- ديوان ابن خفاجة، ص 103.

21- ديوان ابن زيدون، ص 172.

22- رسائل ابن حزم، ج224/1.

23- تأريخ الأدب العربي (عصر الأندلس)، شوقى ضيف/ ص 264.

24- الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، د.نصرت عبدالرحمن ص 127- 170، مكتبة الأقصى، عمان ط2، 1982م.

25- تاريخ الشعر العربي حتى أواخر القون الثالث الهجري د. أحمد النعيمي، ص 102، دار الكتب المصرية القاهرة، 1950م.

26- دراسة الأدب العربي، د. مصطفى ناصيف دار الأندلس، ص 236- 237، بيروت ط3، 1983م.

27- "هو أبو عبدالله محمد بن سليمان الخياط الأعمى القرطبي من شعراء الطوائف توفي تقريباً من الثلاثين وأربعمائة" ، الذخيرة، ص 333.

28- نفح الطيب، ج47/2.

29- الذخيرة، ص 826.

30- ديوان ابن زيدون، ص 35.

31- ديوان ابن زيدون، ص 121.

32- (i) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجرى، د. يوسف بكار، دار المعارف مصر، 1970م.

a. (ii) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجرى، د. محمد مصطفى هداره، دار المعارف القاهرة 1963م.

b. (iii) الغزل تاريخه و أعلامه، جورج غريب، دار الثقافة بيروت ط2، 1975م.

33- تاريخ الأدب الأندلسي، د. إحسان عباس، ص 159.

34- "هو أحمد بن محمد الجولاني الأندلسي الإشيبلي المعروف

a. بابن الأبار. شاعر مجيد من شعراء المعتضد بن عباد، وتوفي سنة 433هـ "وفيات الأعيان ج155/1.

35- الذخيرة ، ص 135.

36- يكاد يكون كتاب طوق الحمامة شاهداً على الحب العفيف.

37- الشعر الأندلسي، غارسياغوس، ص 80.

38- دراسات عن ابن حزم و كتابه طوق الحمامة، د. الطاهر مكي، 193.

39- رسائل ابن حزم، ج234/1.

40- ه"هو أبو الحسن علي بن عبدالغني الفهري المقرى الحصري القيرواني الشاعر الفقيه المشهور من شعراء الطوائف، توفي سنة 488ه "الجذوة المقتبس، ص 314".

41- رسائل ابن حزم ج230/1.

42- المصدر السابق.

43- المصدر السابق ج220/1.

44- ديوان الأعمى التطيلي، ص15.

45- محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، تح عباس عبدالساتر، ص18-19، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1982م.

46- ديوان ابن خفاجة، ص 213.

47- أدب الكاتب (المثل السائر) د. أحمد الحوفي و د.بدوي طبانه، ص 96، نهضة مصر القاهرة، ط1، 1960م.

48- رسائل ابن خفاجة ص 214- 215.

49- قصيدة المديح في الأندلس عصر الطوائف، د. أشرف محمودنجا دار المعرفة الجامعية، ص 129-137، السويس، 1998م.

50- الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، د. محمد محمد حسين، ص12، المطبعة النمودجية مصر ط1.

51- طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي تح محمود شاكر، ص 328، دار المعارف مصر.

52- نقد الشعر، قدامه بن جعفر تح د. محمد عيسى منون القاهرة، ص 35.

53- كتاب الهجاء في الأدب الأندلسي، د.فوزي عيسى، دار المعارف مصر.

54- ديوان ابن زيدون، ص 196.

55- المصدر السابق ص 195.

56- "القرآن" سورة البقرة، رقم الآية 61.

57- الذخيرة ، ص 150.

58- ديوان ابن خحفاجه، ص 194.

59- نفح الطيب ج187/1.

60- نفس المصدر ص 188.

61- ديوان ابن الزقاق ص 210.

62- مطمح الأنفس ص 318.

63- ديوان ابن زيدون ص 264.

❁❁❁